الشهد
العدد 334 - السنة الثالثة عشر- الأحد 28 أبريل 2024 م – 19 شوّال 1445هـ

قالت العرب

رأيتك عند باب الكهف عند الدار / معلّقة على حبل الغسيل ثياب
أيتامك / رأيتك فى المواقد فى الشوارع فى الزرائب فى دم الشمس /
رأيتك فى أغانى اليتم و البؤس رأيتك ملء ملح البحر والرمل.

هكذا عرفت شمس الدين الحجاجى

عالم موسوعي عصامى رحالة شجاع ثائر ضد الظلم باحث عن الديمقراطية معتز بهويته وفى صوفى زاهد كاره لتولى المناصب مبدع استثنائى

تحمل سيرة الدكتور أحمد شمس الدين الحجاجى صفات أبطال السير الشعبية الذين كرَّس لهم الكثير من دراساته وجهوده العلمية، ثائرًا ضد الظلم يقف فى صف المظلوم حتى يأتى له بحقه ، يخوض معارك صعبة يتجنبها الجميع ليس من أجل مصالحه الشخصية وإنما من أجل آخرين. عرفت سيرته من خلال تعاملى المباشر معه منذ ٢٠١٢ وحتى رحيله فى ١٣ فبراير ٢٠٢٤، ومن خلال ما حكاه لى أو حُكى لى عنه من مواقف لم أعاصرها، عرفته عالمًا موسوعيًّا، عرفته رحالةً كثير الأسفار بين قارات العالم، عرفته مناضلًا شديد الكراهية للظلم لا يتوقف عن النداء بالديمقراطية، عرفته عصاميًّا، عرفته صوفيًّا زاهدًا، عرفته مبدعًا، عرفته محبًّا لأهله معتزًّا بجذوره لم يغير لهجته الجنوبية الرائقة.

أذكر أنه عندما علم الصحفى عبدالرحمن أبو العنين أن الدكتور شمس هو من يشرف على أطروحتى للماجستير انهالت ذكرياته مع هذا الأستاذ الذى كان يشارك طلاب الجامعة فى المظاهرات ضد الظلم والاستبداد فيحمله الطلاب فوق أعناقهم فى مظاهرات الجامعة فى الثمانينيات وهم يهتفون «أحمد شمس يا أحمد شمس انهاردة ضلمة وبكره شمس» والهتاف الثانى الشهير «دكتور شمس يا دكتور شمس، لينا نهار ولينا شمس». فلم يكن يعبأ بالعواقب التى يتعرض لها والتهم التى قد توجه إليه بتحريض طلاب الجامعة على المظاهرات ، كل ذلك كان يلقيه وراء ظهره طالما وجد أن المطالب عادلة فلا يتأخر عن تلبية النداء.

أذكر عندما تعرض الدكتور سيد البحراوى إلى حملة تشويه وأكاذيب وتهم باطلة نتيجة لتدريسه لرواية الطيب صالح «موسم الهجرة إلى الشمال» على طلابه وكانت هناك مظاهرات ضده، سارع الدكتور أحمد شمس الدين الحجاجى ليكون أول مدافع عنه ضد هذه التهم الباطلة متناسيًا الخلافات التى كانت بينهما فى تلك الفترة، فهكذا كان ديدن الدكتور أحمد شمس الدين الحجاجى يقف مع الحق دون النظر إلى أى شيء أو حسابات أخرى.

ساند شعراء السيرة الشعبية ووقف فى وجه عبدالرحمن الأبنودى الذى كان يسطو على مجهودهم من خلال ادعائه أنه جمع السيرة من أكثر من راوى شعبى ووضعها فى كتاب بينما كانت فى الحقيقة كلها روايات مختلفة رواها له جابر أبو حسين فوضعها الأبنودى بين دفتى كتاب تحمل اسمه، وكان يعمل على إيهام الجمهور أن السيرة الهلالية من تأليفه وأن الراوى يقول صياغة الأبنودى للسيرة فقد كان الإعلان اليومى الذى تذيعه الإذاعة لرواية جابر أبو حسين: السيرة الهلالية، يرويها عبد الرحمن الأبنودي، غناء جابر أبو حسين. جاعلًا من جابر مجرد مغنى لا مبدع صاغ هذه السيرة بقريحته الشعرية الشعبية الفذة. وقد فند الدكتور شمس الدين الحجاجى ادعاءات عبدالرحمن الأبنودى بشكل علمى فى دراسة له بعنوان «الانتحال على طريقة عبدالرحمن الأبنودي» ولم يخض شمس الدين الحجاجى هذه المعركة مع الأبنودى إلا من أجل نسب الحق إلى صاحبه الذى تُوفى – جابر أبو حسين – وظن الأبنودى أنه لن يجد من يدافع عنه ويرد له حقه.

المحبة

كانت مدرسة الدكتور أحمد شمس الدين قائمة على المحبة، يسعى إلى التأليف بين جميع تلاميذه وجعلهم أسرة واحدة مهما اختلفت أجيالهم، تلاميذ فى مدرسة شمس الدين الحجاجى التى تجعل من إتقان العمل هى القيمة العليا، كان يراجع رسائل تلاميذه حرفًا حرفًا موجهًا أبناءه إلى المراجع المفيدة لهم من واقع خبرته الطويلة، يكلفهم بقراءة عشرات الكتب، يطالبهم بإعادة ما كتبوه ولا يرضى لهم سوى بما يليق بالمدرسة التى أسس بنيانها على مدار سنوات عمره، ثم إذا جاءت المناقشة العلمية يكون خير مدافع عنهم بالحق لعلمه بما بذلوه من جهد فى كتابة أطروحتهم.

زاهد

عرفت الدكتور أحمد شمس الدين زاهدًا من أكبر زهاد عصره، عُرِضت عليه مناصب جمة لكنه رفضها كلها، منها أنه كُلِّف بأن يتولى أحد المناصب المهمة فى وزارة الثقافة اعتذر عن قبوله بصورة ربما شكلت صدمة لمن أبلغه بالأمر والذى كان يعتقد أن الدكتور شمس سوف يرحب به، خاصة وأن كثر يتقاتلون على نيله بينما جاءت إليه هو دون طلب منه.

وفى موقف ثان يدل على زهده واعتزازه بأرومته أنه حين دُعى إلى أحد الملتقيات الثقافية فى دولة خليجية، أعجبت إحدى الأميرات بطرحه الثقافى المتقن وموسوعيته وعفويته فى الحديث، وأمرت بأن يمنح مكرمة استثنائية تقديرًا له، فما كان منه إلا أن رفض ذلك عندما توجه إليه السكرتير الخاص بها بظرف به مبلغ مالى قائلًا له فى إباء شديد (ما هذا يا بنى نحن أبناء شيوخ نُعْطى ولا نُعْطَى) – كيف لا هو حفيد الشيخ أبو الحجاج الأقصرى وعميد الأسرة الحجاجية – فلما وصل ذلك الأمر بتلك الأميرة الخليجية ازداد إعجابها بموقفه هذا ونبله، وما كان منها سوى أن دعته إلى مأدبة عشاء مع أسرتها فى قصرها.

الوفاء

عرفت الدكتور أحمد شمس الدين الحجاجى وفيًّا، فلم أر إنسانًا يحب أبيه كما أحب الابن أحمد والده شمس الدين، كان كثير الحديث عنه والتغنى به، ذلك الأب الذى تعلم فى الأزهر الشريف فى بداية القرن العشرين، ثم عاد الأب إلى الأقصر وعمل مفتيًّا لطريقة الشيخ أحمد الطيب جد الشيخ أحمد الطيب شيخ الأزهر حاليًّا، ثم بعدها عمل مأذونًا إلى جانب عمله معلمًا فى إحدى مدارس الراهبات فى الأقصر، وحين خرج على المعاش لم تمنحه المدرسة مكافأة نهاية الخدمة التى يستحقها فقال له ابنه أحمد أنه من الممكن أن يرفع على المدرسة قضية فى القضاء وسينال حقه، فقال له الأب لو أخذتُ حقى ربما أغلقت تلك المدرسة أبوابها تمامًا ولم يعد لديها ما تُعلِّم به أبناء الأقصر. ذلك الموقف كان له بالغ الأثر فى حياة أحمد شمس الدين الحجاجى فى تعلم معنى التسامى والزهد والتنازل عن حقه إذا كان ذلك فى صالح الجماعة مقدما مصلحة الكل على النفس.

عرفت ذلك الوفاء فى ذكره الدائم للدكتور نعمان القاضى الذى طالما حدثنى عنه وعن مواقف دارت بينهما، وكأن نعمان لم يفارق الحياة خالدًا فى ذاكرته وكأنه لم يعرف صديقًا صدوقًا سواه.

رحالة

عرفت الدكتور أحمد شمس الدين رحالة لا يكف عن تجوال قارات العالم، بدأها بالانتقال من الأقصر للتعلم فى جامعة القاهرة ليكمل سيرة والده الذى جاء إلى القاهرة للتعلم فى الأزهر الشريف من قبل، وبعد الانتهاء من الدراسة سافر إلى كوريا الجنوبية ودرس فى جامعاتها وبالتحديد فى جامعة هانكوك هناك، وخرج بتأملات مهمة حول أسباب غياب المسرح عن الثقافة العربية، وتعرف على الأسطورة كواقع معاش هناك، ثم عاد منها ليسافر إلى أمريكا طاف بين جامعاتها وحظى بشعبية هائلة بين الطلاب هناك وَلُقِّبَ بالإمام وفتح الأبواب للكثير من زملائه للقدوم إلى أمريكا للعمل فى جامعاتها هناك، فقد درس فى جامعة يوتا وبنسلفانيا وأبلاشيا –نورث كارولينا– وويسكنسن وكتب كتابه بالإنجليزية هناك أصول المسرح العربي، ثم قرر ترك كل هذا والعودة للتدريس فى جامعة القاهرة، وبعدها عمل لبضع سنوات فى المملكة العربية السعودية وفى دولة البحرين، فعمل فى جامعات الملك فيصل، وكلية البنات بالرياض، وكلية البحرين الجامعية، وجامعة الشيخ زايد. ومازال تلاميذه من هذه الدول يكنون له شديد المحبة والعرفان وكانوا يوصوننى بأن أوصل لهم السلام، وإذا قدموا إلى القاهرة أن أصطحبهم إلى زيارته فى منزله.

مثابر

عرفت الدكتور أحمد شمس الدين الحجاجى الإنسان المثابر العصامى الذى بنى نفسه بنفسه، أنهى دراسته فى كلية الآداب جامعة القاهرة بالحصول على الليسانس فى الآداب، ثم حصل بكالوريوس التربية من جامعة عين شمس، وفى هذه الأثناء كان يعد أطروحته لرسالة الماجستير الرائدة فى مجالها حول النقد المسرحى فى مصر فى الصحف والجرائد المصرية ١٨٧٦ : ١٩٢٣، كان يمشى على قدميه إلى دار المحفوظات بالقلعة بضعة كيلومترات توفيرًا للنفقات، يعكف فيها على قراءة الصحف والمجلات القديمة ليخرج برسالة رائدة وأصيلة تؤرخ للحركة المسرحية فى مصر راصدًا فى هذا الكتاب الخطوط التى أدركها نقاد المسرح وكتابه فى تلك الفترة الزمنية. ثم أكمل رحلته العلمية موجهًا جهوده للنقد المسرحى بعدة دراسات منها العرب وفن المسرح، والأسطورة والمسرح الذى كان فى الأصل أطروحته للدكتوراه وحظيت بحفاوة كبيرة وكانت تدرس فى أقسام الفلسفة، كما أنه أصلٌ للمسرح الشعرى فى كتابه المسرحية الشعرية ، ثم اتجه إلى الفنون الأدائية الشعبية خاصة السير الشعبية وأسهم فيها اسهامات بارزة بكتب تعد عمدة فى بابها ولا يمكن لأى باحث فى الأدب الشعبى أن يستغنى عنها مثل كتابه مولد البطل فى السيرة الشعبية، والنبوءة ومولد البطل وذلك بخلاف عشرات الكتب والدراسات حول الشعر والرواية العربية منها كتابه المتفرد صانع الأسطورة الطيب صالح.

الشجاع

عرفت الدكتور شمس الدين شجاعًا يدافع عن زملائه عام ١٩٦٠م أمام طه حسين الذى غضب منهم لأنهم لم يعرفوا نسب حسان بن ثابت الأنصارى الذى ينتمى إلى قبيلة الخزرج، وعدَّ العميد ذلك علامة من علامات تدنى مستوى الطلاب فى الجامعة وقرر عدم العودة إلى التدريس ولكنه عاد فى النهاية بعد تدخل العديد من الأساتذة واستطاعوا أن يقنعوه بالعدول عن رأيه، وفى المحاضرة التالية واصل تقريع الطلاب فوقف شمس الدين الحجاجى مدافعًا عن زملائه قائلًا فيما قال، إن عدم معرفتهم لنسب حسان بن ثابت ليست معيارًا على مستواهم العلمي، وأن جميع هؤلاء الطلاب يناضلون من أجل لقمة العيش ومع ذلك يصرون على إكمال دراساتهم العليا فى الجامعة فهم بحاجة إلى المساندة والدعم والتوجيه، فما كان من عميد الأدب العربى أن قال له (إنى أعلم ذلك، وإن كنت قد نسيته) ثم سأل الحجاجى عن اسمه فقال له أحمد شمس الدين الحجاجي، فقال له العميد إنه يعرف شخصًا بذلك الاسم يدعى «شمس الدين الحجاجي» كان يقرأ له ممن كانوا يقرأون له إبان دراسته فى الجامع الأزهر، فأخبره الحجاجى أن ذلك هو أبي، وحين عاد إلى الأقصر سأل والده لماذا لم يخبره أنه كان صديقًا لطه حسين فرد عليه أبوه (مالك وما لأصدقائى فهم أصدقائى لا أصدقاءك أنت) ليرسخ فى ابنه قيمة الاعتماد على النفس.

عرفت الدكتور شمس الدين الحجاجى شجاعًا فى ذلك الموقف الذى حكاه لى عما جرى بينه وبين صديقه الدكتور نعمان القاضى (توفي: ١٩٨٣) – وكان يردد اسمه كثيرًا ويذكره بمحبة شديدة – إذ رآه واقفًا أمام المبنى الرئيسى للجامعة وحين اتجه نحوه ليسأله عن سر وقوفه أخبره أن الدكتور سهير هى من فعلت ذلك ونصحه نعمان بأن يذهب بعيدًا عنه حتى لا تراه واقفًا معه فيؤثر ذلك على علاقة شمس بأستاذته سهير وربما يؤدى ذلك إلى تعطيل مناقشته للماجستير فعلم الدكتور شمس من ذلك الحديث أن هناك خلافًا كبيرًا بين سهير ونعمان القاضي، ورفض أن يغادر المكان ووقف مع صديقه حتى جاءت الدكتورة سهير فتقدم ناحيتها وبأسلوب الدكتور شمس الحكيم نجح فى حل مشكلة صديقه معها التى كانت تبدو عصية على الحل.

الديمقراطية

عرفت الدكتور أحمد شمس الدين الحجاجى المولع بالديمقراطية والحرية ولا يرى أن هناك سبيلًا لتقدم مصر دون وجود حياة ديمقراطية سليمة، وكان يرى أن نظام الملكية البرلمانية هو النظام السياسى الأفضل لمصر على غرار نظام الحكم فى إنجلترا. وكان يرجع غياب الحركة المسرحية فى مصر وضعفها إلى غياب الحرية فبدون وجود الحرية لا يوجد مسرح حقيقي.

ورغم أن عمره كان قد تجاوز السبعين حين اندلعت ثورة الخامس والعشرين من يناير إلا أنه شارك فيها ووقف فى ميدان التحرير وهتف مع المتظاهرين مطالبًا بالحرية وخطب على منصة التحرير محذرًا الشباب من الكثير من الأخطاء التى من الممكن أن يقعوا فيها إذا تركوا الميدان بعد تنحى مبارك، وحثهم على الإصرار على وجود حكم مدنى لمصر لكن الكثير من الأخطاء التى حذر منها حدثت بالفعل بعد ذلك.

الأقصري

عرفت الدكتور شمس الدين الحجاجى الذى لم ينس جذوره ولا أهله ولم تأخذه القاهرة عن ناسه، فقد ظل شديد الانتماء إلى الأقصر كثير الحديث عنها، كيف لا وهو عميد الحجاجية ويقام بشكل سنوى مولد لجده أبو الحجاج الأقصري. وقد كان هذا الانتماء إلى جذوره واحد من أهم الأسباب التى دفعتنى للسعى كى أكون مريدًا فى مدرسته، وكانت تلك واحدة من أكثر المناطق خصوصية فى الحديث بيننا كأبناء لمحافظة واحدة كان يحكى لى عن تاريخ الأقصر التى عاشها فى طفولته وكما سمع عنها من أبائه وأجداده ويحكى لي عن مدينة إسنا التى أنتمى إلى أحد قراها كاشفًا لى تاريخ هذه المدينة وكما كانت مدينة عظيمة.

المبدع

عرفت الدكتور أحمد شمس الدين الحجاجى مبدعًا غير عادى كتب روايته الأيقونية سيرة الشيخ نور الدين، لكنه أعدم قبلها ثمانى روايات رأى أنها غير جديرة بالنشر دون أن يطلع عليها أحدًا، وكذلك فعل مع المسرح إذ نشر مسرحية واحدة وهى الخماسين من بين العديد من المسرحيات التى كتبها دون أن ينشرها، فقد كان حسه النقدى لنفسه شديد الصرامة وحرم المكتبة العربية من الكثير من أعماله الإبداعية ولم يسمح لها بأن ترى النور، فقط روايته سيرة شيخ نور الدين التى بدأ كتابتها فى أمريكا فى أواخر الستينيات التى أفلتت من قبضته الحديدية وأعاد كتابتها أكثر من مرة ثم أعطاها إلى صديق له فقرر نشرها منجمة فى إحدى المجلات ثم صدرت مجمعة فى كتاب، وربما لو فعل هذا الصديق لما رأت هذه الرواية النور أيضًا وحين تحولت إلى مسلسل تلفزيونى باسم «درب الطيب» بطولة هشام سليم وروجينا حققت نجاحًا جماهيريًا كبيرًا، وأخبرنى أن بطلة المسلسل روجينا تواصلت معه لتخبره أنه لم تشارك فى عمل من قبل ومر بمثل هذه السلاسة واليسر والتوافق بين الجميع مثلما هو الحال فى المسلسل المأخوذ عن روايته.

أما عن مسرحيته فعندما قُدِّمت على خشبة المسرح على مسارح الثقافة الجماهيرية وعرضت فى نجع حمادى حققت نجاحًا جماهيريًا ضخمًا وكان يتزاحم الناس لمشاهدة العرض.

ولم يبتعد الحس الإبداعى عن أعمال الدكتور شمس الدين الحجاجى النقدية، إذ حملت الرؤية الإبداعية نفسها دون أن يقلل ذلك من قيمتها العلمية الأكاديمية فقد كان الدكتور أحمد شمس الدين الحجاجى مبدعًا بالفطرة والتجربة فى جميع مناحى حياته.

د. عبدالكريم الحجراوي

الزير سالم مخنثًا وجبانًا فى المرويات التاريخية

تختلف صورة الزير سالم في المرويات التاريخية عما هو موجود في سيرته الشعبية، تلك المرويات التي تتميز بتعددها وتناقضها، مثلما تتعدد السير الشعبية باختلاف نسخها ورواية الرواة لها في كل قطر أو في كل محيط جغرافي مختلف داخل القطر نفسه، فإذا أخذنا نموذجًا على سبيل المثال للتعدد في المرويات التاريخية للحدث الواحد، سنجد أن بعض المرويات تقول إن مقتل «جساس» جاء على يد «هجرس بن كليب»، وفي ثانية قتل على يد التغلبيين حيث لحقوا به قبل هروبه إلى الشام وفيها جرح ومات من هذا الجرح. وتتماس هذه المرويات التاريخية في بعض أحداثها مع ما جاء في السيرة، بينما تختلف كل واحدة منهما عن الثانية، في رسم الشخصيات والنموذج الواضح على ذلك صورة الزير التي تتسم بالفحولة والقوة في السيرة وبينما في المرويات التاريخية تكاد تكون عكس ذلك.

ففي السيرة، شخصية «الزير» بطل همام ممتدح ويرد في بدئها في طبعة الجمهورية»...فهذه سيرة البطل الأسد الكرار والبطل المغوار الذي شاع ذكره في الأقطار، وأذل بسيفه كل صنديد وجبار المهلهل بن ربيعة صاحب الأشعار البديعة، والوقائع المهولة المريعة... ». بينما في المرويات التاريخية تنزع عنه تلك البطولة الأسطورية التي تغلفه بها السيرة، فهو فيها لا يقل حماقة عن «جساس» حين قتل «بجير بن الحارث بن عباد» ذلك الرجل الذي سالم تغلب ولم يشترك في الحرب ضدهم مع قومه البكريين لأنه يرى ما فعله جساس بقتل ابن عمه في ناقة أمر لا يليق؛ مما أشعل الحرب من جديد بين القبيلتين ووقع «المهلهل» في قبضة «الحارث» يوم «تحلاق اللمم» ونجح في أخذ الأمان لنفسه بعد حيلة احتالها عليه، ولما سأله «الحارث» عن كفء لابنه كي يقتله ثأرًا له، دله على صديقه «امرئ القيس بن أبان»، الذي كان عارض المهلهل في أن يقتل «بجير». وبعد المعركة هرب المهلهل إلى اليمن بعد أن ورط قومه في حرب جديدة مع البكريين، وهناك أجبر على أن يزوج ابنته لمن لا يراهم أكفاء له في النسب.

وتترجم كتب الأدب للمهلهل ترجمة مغايرة لما هو في السيرة «... هو ابن لربيعة...، وإنما لقب مهلهلا لطيب شعره ورقته... هو أول من كذب في شعره وهو خال امرئ القيس بن حجر الكندي، وكان فيه خنث ولين، وكان كثير المحادثة للنساء، فكان كليب يسميه زير النساء...» فأكثر ما تمتدحه تلك الترجمة التي نقلها الأصفهاني في كتابه الأغاني في الزير هو طيب شعره ورقته وأنه أول من كذب في الشعر، وستعد تلك ميزة له على حد عبارة «الأصمعي» الذي قال «الشعر نكد بابه الشر، فإذا دخل في الخير ضعف» أو حسبما هو شائع «أعذب الشعر أكذبه»، أما عن الفروسية فهي ليست من الصفات التي تمنحه إياها التراجم بل على العكس تعطيه ما يناقضها «وكان فيه خنث ولين».

وتقوم بينة السيرة الشعبية في جزء من أحداثها على العداء بين الزير وجليلة بنت مرة التي توغر صدر كليب عليه، وتمعن في إرسال الزير إلى رحلات يصعب النجاة منها، إلا أن كل هذه الأفاعيل تبطل أمام شجاعة هذا الصبي «الزير» الذي يقاتل الأسود، انتقامًا لحماره الذي أكلته ذات مرة، ويقرر الثأر له بأن يقتل كل السباع الموجودة في «بئر السباع». فالزير في السيرة رغم إدراكه أن كل تلك المهمات القصد منها فناؤه بسبب كيد «الجليلة» له بإيغار صدر أخيه عليه، فإنه يختار طاعة أخيه حتى وإن أراد موته، وفي الأخير يستأذنه في الانصراف والبقاء في الغابة لما يرى صعوبة القرب من أخيه في ظل كراهية زوجته له وسعيها إلى قتله «فقال له كليب ...إنك اليوم ساعدي وزندي وأنت الحاكم من بعدي، فقال – أي الزير – لا أريد سوى سلامتك والذي أريده منك أن تأمر لي بصيوان... عند بئر السباع.. لأني أنفرد عن باقي الناس وأكون وحدي خصوصًا من كيد النساء... فإن الانعزال أفضل للرجال الأحرار ولا سيما قد صار لي على السباع ثأر على قتل الحمار ولا بد لي من قتل جميع الأسود أو أن الحمار يرجع...».

أما المصادر التاريخية فلا تذكر أن هناك خلافًا كان بين الزير وجليلة. تلك الكراهية التي كانت محركًا للأحداث في السيرة الشعبية، والتقطتها الكثير من الأعمال الدرامية مثل مسلسل الزير سالم إخراج حاتم علي ٢٠٠٠، الذي جعل كراهية جليلة هي كراهية نابعة من حبها الشديد للزير ولأنه لم يتقدم للزواج منها فهي تنتقم منه، في حالة مشابهة لما بين حربي وصفية في رواية بهاء طاهر «خالتي صفية والدير» تلك المحبة التي يصدق فيها القول «ومن الحب ما قتل».

د. عبدالكريم الحجراوي